مراتب الأيديولوجيا وتجلياتها في الخطاب الأدبي في النقد الجزائري المعاصر عند عمار بلحسن

The ranks of ideology and its manifestations in literary discourse in contemporary Algerian criticism according to Ammar Belhassen

عنتره عمير *

Antara Amieur

مخبر الخطاب الصوفي

جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله(الجزائر)

University of Algiers-2- Abou El Kassem Saadallah-(Algeria)

Antara.amieur@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2024/09/15	تاريخ القبول: 2024/10/11	تاريخ النشر: 2024/12/02

مُلخّص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليات الأيديولوجيا وحضورها في الخطاب الأدبي، من خلال مقاربتها وتحديد مراتبها ووظائفها عند الناقد الجزائري عمار بلحسن استنادا إلى آراء المفكر الماركسي أنطونيو غرامشي بالذات كونه جمع بين الفكر السياسي والبنية الفوقية والأيديولوجيا، ولأن علاقة الأيديولوجيا بالأدب من منظوره ثرية ومعقدة في الآن ذاته، كان لابد من الوقوف عند هذا الإشكال والكشف عن حقيقة العلاقة التي تجمع بين الأدب كمجال حيوي يصور المجتمع، وبين الأيديولوجيا كعلم للأفكار تربط بين مجموعة أو طبقة معينة تشترك في الأفكار والمعتقدات ذاتها.

الكلمات المفتاحية:

مراتب الأيديولوجيا، الخطاب الأدبي، علاقة، النقد الجزائري، عمار بلحسن، أنطونيو غرامشي.

Abstract :

This study aims to reveal the manifestations of ideology and its presence in literary discourse, through its approach and determine its ranks and functions when the Algerian critic Ammar Belhassen based on the views of the Marxist thinker Antonio Gramsci in particular because he combined political thought,

* عنترة عمير: Antara.amieur@univ-alger2.dz

superstructure and ideology, and because the relationship of ideology with literature from his perspective is rich and complex at the same time, it was necessary to stand at this problem and reveal the truth of the relationship that combines literature as a vital field that depicts society, and ideology as a science of ideas linking A particular group or class shares the same ideas and beliefs.

Keywords:
Ranks of ideology - literary discourse - relationship - Algerian criticism - Ammar Belhassen - Antonio Gramsci.

المقدمة:

تعد قضية الأدب والأيديولوجيا من أهم قضايا الواقع الثقافي والاجتماعي، هذا إذا تحدثنا عن الأدب كونه تعبيرا عن كل ما يتعلق بالإنسان، ومترجما لأفكاره وتصوراته، وناقلا لأحاسيسه ومشاعره ومرآة عاكسة للمجتمع بكل مظاهره وأحداثه، في حين تعد الأيديولوجيا تصورا للعالم تتجلى في مجالات كثيرة كالفن والاقتصاد والقانون، وتشمل كل مظاهر الحياة الفردية والجماعية، أطلق عليها "علم الأفكار" محتواها ديني أو اقتصادي أو سياسي...الخ.

للوصول إلى حقيقة تشكل العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا استدعت هاته الإشكالية، دراسة كتاب"الأدب والأيديولوجيا" لعمار بلحسن، لما له من أهمية بالغة في الدراسات الأدبية المعاصرة وخاصة في مجال التحليل الروائي، إذ بادر إلى اكتشاف منهج علمي جمع فيه بين التحليل السوسيولوجي واللغوي-الدلالي للرواية كما صرح بذلك، إذ يعدّه منهجا مخالفا للأبحاث والدراسات التي سبقته، لتوضيح العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا، ولأهمية الموضوع الذي طرحه عمار بلحسن، وما فيه من انشغالات ثرية تفيد الباحث والدارس المعاصر لفهم هذه العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا سعينا إلى الكشف عن هذه القضايا الواسعة التي قدمها، من خلال استحضار بعض الخلفيات الفلسفية التاريخية والمعرفية من بينها ما قدمه المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي في هذا المجال. وهذا ما دعانا إلى الوقوف عند الإشكال كيف تحضر الأيديولوجيا في الخطاب الأدبي من وجهة نظر عمار بلحسن وما الذي يجعلها عنصرا جماليا في النص الأدبي وفق رؤيته؟ وما هي مراتبها ووظائفها وكيف تتجلى في الأدب استنادا إلى آراء أنطونيو غرامشي؟

لقد تدرج "عمار بلحسن" في بحثه وقسم عمله إلى قسمين: تدور محاور القسم الأول حول الأيديولوجيا، مفهومها وظائفها وعلاقتها بالمثقفين مع التركيز على تنظير المفكر الإيطالي"أنطونيو غرامشي" للأيديولوجيا.

أمّا محاور القسم الثاني فقد سعى فيها إلى الكشف عن العلاقة التي تجمع بين الأدب والأيديولوجيا كأطروحتين متضادتين معقّدتين في الآن ذاته مع تحليل سوسيولوجي ولغوي دلالي للرواية التي تعتبر الجنس الأدبي الذي يمثل تطوّرا وامتداد لأحداث وصراعات تاريخيّة معينة تصور وقائع الدولة البورجوازية.

ما يهمنا في هذه الدراسة هو محاور القسم الأول التي تدور حول مراتب الأيديولوجيا وكيفية تجليها في الخطاب الأدبي، وعلاقتها به انطلاقا من علاقتها بالفلسفة والدين والفولكلور والحس السليم والحس المشترك، ولإحاطة أكبر بموضوع البحث لابد من التعريج إلى مقاربة الأيديولوجيا عند المفكرين الماركسيين أمثال ماركس وأنجلز وسبب اختيار بلحسن مقاربة الأيديولوجيا في علاقتها بالخطاب الأدبي عند أنطونيو غرامشي دون غيره.

أولا- مقاربة الأيديولوجيا:

لقد نالت الأيديولوجيا اهتماما كبيرا لدى المفكّرين الماركسيين أمثال ماركس وأنجلز، وكوفالزون ماكشين وأوليدوف ولينين وغيرهم، ولأنّ الماركسية هي التي حدّدت القاعدة الاقتصادية لوجود الناس، ومن منظور الطبقة الفوقية والحياة المادّية اهتمت الماركسية بمستوى الوعي الإيديولوجي، وقد حدد كل مفكر من المفكرين الماركسيين مفهومه للأيديولوجيا ونظرته إليها، فما هو السبب والدافع لاستحضار عمار بلحسن في كتابه "الأدب والأيديولوجيا" مفهوم الأيديولوجيا عند المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي على غرار بقية التعريفات الأخرى التي قدّمها المفكّرون الماركسيون الذين ذُكروا سابقا، يقول "ميشال سيمون" في هذا الصدد" لقد قالوا عن غرامشي أنه المفكر الماركسي الأكثر أصالة وإبداعا بعد لينين... فنحن نعرف أن ماركس كان مفكر التاريخ... ونعرف أن لينين هو مفكر الثورة وتقنياتها... فما هي المساهمة الخاصة لغرامشي في التفكير والنقد الماركسي؟ إن غرامشي هو مفكر السياسة والبنية الفوقية والأيديولوجيا ".[1]

حسب رأي سيمون[2] غرامشي هو مفكر السياسة والبنية الفوقية والأيديولوجيا، وعليه فبلحسن يرى أن غرامشي لم يركّز على عنصر الاقتصاد والسياسة فقط كما فعل ماركس ولينين وغيرهما من مفكري الماركسية الذين كانت نظرتهم للأيديولوجيا تقتصر على المادّة فقط، ولكنه ذهب إلى أن الأيديولوجيا: "ليست طبقية وإنما تساوي الفلسفة، وتساوي النظرة الكونية الشاملة وتساوي السياسة، أي مجمل الأفكار التي تحرّك مجتمعا ما، أو تكون أساسا لوجوده وحركته، وهي لا تشمل فقط النّظريات والأفكار العامة بل تشمل كذلك كل أنساق القيم والمعتقدات.[3]

إنّ نظرة غرامشي للأيديولوجيا نظرة شاملة، فهي ليست طبقية بل تشمل كل النظم الاجتماعية وليست إيديولوجيا خاصة بفئة معينة من المجتمع بل هي إيديولوجيا المجتمع بكلّ فئاته وطبقاته، ومن جهة أخرى يرى عمار بلحسن كذلك أن الأيديولوجيا متداخلة مع الطبقات الأخرى عند غرامشي « فإن اللغات والأيديولوجيات متعدّدة اللّهجات ومن نواحي كثيرة، كان عمل الشيوعي الإيطالي أنطونيو غرامشي ما جعل التفكير ممكنا في كيفية تداخل الأيديولوجيات مع الطبقات الأخرى، وكيف يمكن أيضا للطبقة نفسها أن تحتوي على أيديولوجيات كثيرة ومتناقضة»[4] فالأيديولوجيات تتداخل مع الطبقات الأخرى، إذن فهناك طبقات متعددة وايديولوجيات متعددة متداخلة مع بعضها البعض، بل وفي الطبقة الواحدة نجد أيديولوجيات متعددة ومتناقضة.

ينفي غرامشي الخصوصية عن الأيديولوجيا، ويرى أنها عامة ومتعددة ومتداخلة مع الطّبقات الأخرى ومع النّظم الاجتماعية والسياسية، فإذا كان الاقتصاد يمثل قاعدة الفكر الماركسي فإن الأيديولوجيا هي البنية الفوقية، ولكن حسب ما ذهب إليه غرامشي فإنّ للأيديولوجيا تأثيرا على البناء التّحتي كذلك، لأن الفكر الماركسي يركّز على البنية الفوقية فقط، وبلحسن يستثني غرامشي الذي جعل للأيديولوجيا مساحة أوسع حين ربطها بالبنية التحتية، ولم يكتف بنظرته تلك للأيديولوجيا، بل نفى عنها كذلك فكرة أنّها وعي زائف كما يعتقد ذلك ماركس وغيره، وفي هذا الصّدد يقول أنجلز: «إنّ الأيديولوجية عملية ذهنية يقوم بها المفكّر وهو واع، إلا أنّ وعيه زائف لأنه يجهل القوى الحقيقية التي تحركه، ولو عرفها لما كان أيديولوجيا».[5]

يقوم المفكر بهذه العملية الذهنية وهو واع إلا أنه لا يدرك ما يدفعه لهذا التفكير، فوعيه زائف والحقيقة بعيدة عنه لأنه لا يدركها وهذا ما يرفضه غرامشي لأنه ضد فكرة أن الأيديولوجيا وعي زائف، فهو ينفي الزيف عن الأيديولوجيا ما دام أن لها وظائفها التي تفيد بها، ويوجه غرامشي جل اهتمامه إلى هذه الوظائف لأنّه يعتبرها الأفكار التي تصل بنا إلى الحقيقة، وتترجم أفكار مجتمع ما سواء أكانت هذه الأفكار اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو تاريخية، ولذلك فمن منظوره لا يصحّ أن نحكم عليها بأنها زيف أو وهم.

على غرار ما تقدم يورد عمار بلحسن تعريف أنطونيو غرامشي للأيديولوجيا حيث يوضح أن الأيديولوجيا ليست وعيا زائفا ولا تقتصر على الاقتصاد والمادّة فقط وإنّما هي: «تصور للعالم يتجلّى ضمنيا في الفنّ، والقانون والنّشاط الاقتصادي وفي جميع تظاهرات الحياة الفردية والجماعيّة».[6]

إنّ نظرة بلحسن للأيديولوجيا تستند إلى ما ذهب إليه غرامشي في أنّها تشمل الفن والقانون والنشاط الاقتصادي وجميع مظاهر الحياة، إذ تتجلى في هذه الأمور وذلك على عكس ما يراه ماركس وأنجلز «أن الأيديولوجيا في الأساس وعي العالم المشوه أو الزائف الذي يخفي علاقة الناس الحقيقية مع عالمهم»[7]، فإذا كانت الأيديولوجيا عند ماركس وانجلز تخفي الحقيقة، فإنّها عند غرامشي تصور للعالم وتتجلّى في الأمور السالفة الذكر ولا تركّز إلاّ على النّشاط الاقتصادي «وهذا يعني أن غرامشي تجاهل دور التغيرات الاقتصادية، ولكنه

لم يعتقد أن هذه التغيرات تخلق وحدها الأحداث التّاريخية، وإنما يمكنها أن تخلق ظروفا مواتية فقط لبعض أنواع الأيديولوجيات كي تزهر» [8].

حسب هذا الرأي الأخير فإن استبعاد أنطونيو غرامشي لعنصر الاقتصاد من مفهومه للأيديولوجيا أو بالأحرى عدم التركيز عليه كما فعل ماركس وأنجلز لم يكن عنوة بل أنّه لم يعتقد أن التغيرات الاقتصادية لها علاقة كبيرة في خلق الأحداث التّاريخية، وهذا ما يشير إليه التعريف السّابق إلى أن ماركس هو مفكر التاريخ أي الماديّة التاريخية، فغرامشي أهمل هذه العلاقة بين الاقتصاد والتاريخ فالتعريفات الاقتصادية هي من تصنع الأحداث التّاريخية، ولعل هذه نقطة الاختلاف بين غرامشي وماركس، ولكن بقي السؤال مطروحا ما هو واقع الأدب والأيديولوجيا حسب مفهوم غرامشي للأيديولوجيا؟ وإذا كانت الأيديولوجيا تصور للعالم يتجلّى في الفن وفي مظاهر أخرى تشمل كل الأنشطة التي يقوم بها الإنسان فإن الأدب يعتبر نشاطا من هذه الأنشطة وشكلا من أشكال الفنّ التي ينتجها الفرد وعليه فإن الأيديولوجيا كما ذهب إلى ذلك "ميخائيل باختين": «تظهر في الكتابة ... فهي ترتبط بوجهة النّظر التي يتضمّنها العمل الأدبي وتعكس الرؤية الفنية والجمالية التي ينطلق منها الناقد أو الأديب...» [9].

يتضح أنّ نظرة غرامشي للأيديولوجيا تعتبر القاعدة الأولى التي اعتمدها عمار بلحسن حين طرح علاقة الأدب بالأيديولوجيا في كونها شاملة لكلّ الظّواهر الاجتماعية والفنّية والاقتصادية وفي تعددها وتداخلها، وبعدها عن الزيف والوهم، وربطها كذلك بين البنية الفوقية والتحتية وأنها تمثل الفن، فهذه الأسباب هي التي دفعت عمار بلّحسن لاختيار مفهوم الأيديولوجيا عند أنطونيو غرامشي لأنها تكشف حقيقة علاقتها بالخطاب الأدبي وحضورها فيه.

مما سبق نستخلص أن عمار بلحسن اختار مفهوم أنطونيو غرامشي للأيديولوجيا لأنّ نظرته للأيديولوجيا نظرة شاملة تشمل كل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والفنية، كما أن الأيديولوجيا تصور للعالم تتجلى في الفنّ وكون الأدب شكل من أشكال الفن، ولأنها متعددة ومتداخلة الطبقات وفي الطبقة الواحدة نجد أيديولوجيات عديدة، كما أنها البنية الفوقية التي تأثر على البناء التّحتي فهي في نظره لا ترتكز إلا على الاقتصاد والحياة المادّية كما ذهب إلى ذلك ماركس وأنجلز وغيرهما. ثم إن غرامشي نفى عن الأيديولوجيا أن تكون وعيا زائفا فهي تمثل الحقيقة من حيث الوظائف إلي تؤديها في ترجمة الواقع والمجتمع من خلال تصويره وترجمة أفكاره.

إضافة إلى ما سبق فالأيديولوجيا تتجلى في أشكال وأنماط تنزع من حيث هي تعبيرات[10] عن طبقة من طبقات المجتمع على حدّ عمار بلحسن فما هذه الأشكال وما دورها في علاقة الأدب بالأيديولوجيا؟

ثانيا-تجلّيات الأيديولوجيا:

يرى عمار بلحسن أن الأيديولوجيا تتجلى في أربع درجات[11] وهي الفلسفة والدّين أو الاعتقادية، والحس المشترك والفلكلور حيث جعل غرامشي هذه الدرجات على شكل هرم بدأ بأهمها وهي الفلسفة وانتهى بالدّرجة الأخيرة وهي الفلكلور، لكن قد يتبادر إلى ذهن القارئ ما المقصود بهذا الطرح أي بإدراج هذه الأشكال والدرجات الأربعة، فإذا كانت لها علاقة بالأيديولوجيا فما علاقتها بالأدب كذلك؟

2/1-الأيديولوجيا والفلسفة:

تعتبر الفلسفة أثرى درجات الأيديولوجيا في رأي عمار بلحسن وهذا عند المفكّر الإيطالي أنطونيو غرامشي، لما لهما من صلة قوية، فإذا كانت الأيديولوجيا تصورا للعالم فالفلسفة كذلك تصور للعالم وكلاهما نتاج مفكرين، حيث الفلسفة تحمل خلفيّة عن كلّ إنتاج في نظرياتها، ولذا عرفت بأنّها أم العلوم أمّا الأيديولوجيا، فهي تركّز على التعبير عن مصالح طبقة محدّدة تشترك في أفكارها، ومع وجود علاقة قويّة بين الفلسفة والأيديولوجيا فهناك أوجه تشابه وأوجه اختلاف بينهما حيث أن: «الأيديولوجيا بطبيعتها مذهب أو عقيدة أما الفلسفة في أغلب اتّجاهاتها واهتماماتها فهي منهج ورؤية بالإضافة إلى أن الأيديولوجيا عقيدة شمولية وذات طابع كراهي، أمّا الفلسفة فمنهج ورؤية متحرّر، كذلك أن الأيديولوجيا تعتبر مذهبا دوغمائيا (قطعياً) يقوم على اليقين التّام والإيمان الأعمى، بينما الفلسفة فكر نقدي حر، ويمكن أن تعتبر الأيديولوجيا كذلك جوابا نهائيا ومغلقا، بينما الفلسفة سؤال مفتوح لا يتوقّف لحظة إلا ليواصل السّير من جديد»[12].

نستخلص من خلال أوجه الاختلاف بين الفلسفة والأيديولوجيا أن الأيديولوجيا تعتبر فكرا مكتملا تاما أساسه اليقين المطلق لا يحتمل الشك، أما الفلسفة فلا تتوقف عند جواب معيّن ولا عند قضية بعينها، فهي متواصلة مبنية على الشك والتساؤلات المستمرّة المفتوحة المبنية على الجدل والنقاش، فالفلسفة بهذا الطرح شكّ والأيديولوجيا يقين، وفي هذا الصّدد يقول الفيلسوف الوجودي الفرنسي "موريس ميرلوبونتي" في كتابه (تفريط الفلسفة) ويضرب مثالا ببرغسون الذي يمثل الفلسفة: «لقد كان برغسون يقلق بينما البرغسونيّة تطمئن، كان برغسون هجوميا أمّا البرغسونية فتدافع، كان برغسون احتكاكيا بالأشياء، بينما البرغسونية مجموعة آراء مأخوذة»[13].

هذا هو الفرق بين الفيلسوف الأيديولوجي برغسون الذي يمثل الفلسفة في المقولة السابقة أما البرغسونية تمثل الأيديولوجيا «فالفيلسوف قد يبتلى بأتباع بلداء عاجزين عن التفكير النّقدي الحر والمستغني عن أستاذ أو وصي يهديهم إلى جادة الصواب، ولهذا فإن العاقل يستنير بعقله لا بعقل غيره إلا فيما ينوء به جهد الفرد ويحتاج إلى خبرات الكل»[14].

هذا ما يوضّح إيجابيات الفلسفة وسلبيات الأيديولوجيا، فالأيديولوجيا تنتظر من المفكر حتى ينتج أفكاره وينير أفراد المجتمع ويرجعهم إلى جادة الصواب، أما الفلسفة فغنية عن ذلك فهي لا تحتاج إلى مرشد ودليل، فالفيلسوف غير عاجز عن التفكير النّقدي الحر عكس الأيديولوجي.

ومن خلال ما تقدم فعمار بلحسن في طرحه السابق حينما أدرج الفلسفة كدرجة من درجات الأيديولوجيا ذكر إيجابياتها وسلبياتها، فمن إيجابياتها أنها تتجسد في الفلسفة وتحمل داخلها رؤية واضحة لطيفة معيّنة داخل المجتمع ومن سلبياتها كون الفلسفة وحدها عاجزة ومشلولة عن تجسيد العلاقة العضويّة بين الأفكار وحركاتها، ومع ذلك فبلحسن لم يضع مقارنة دقيقة بين الفلسفة والأيديولوجيا واقتصر على طرح علاقة الأيديولوجيا بالفلسفة ولم يذكر علاقتها بالأدب.

2-2/الفلسفة والأدب:

ارتبطت الفلسفة بالأدب منذ القديم ولكن الأدب لم يبق ذلك التتاج اللّغوي الذي يجعل من اللّغة مادّته الأساسية ومن البلاغة وسيلة يستميل بها القارئ، لقد أضحى الأدب يستند إلى الفلسفة وذلك منذ «عهد اليونانيون إلى فلسفة الأدب حين أعطوا العالم أدبا فوق مستوى العصر الذي يعيشون فيه وبفضل فلسفتهم للأدب ارتفعوا بالمجتمع اليوناني إلى أقصى مستوى الحرية، وبفضل فلسفة الأدب واجتماعيته دخلوا إلى السياسة من باب الفكر»[15].

إن الأدب لم يبق بتلك الصورة العفوية كما كان في العصر الجاهلي حين جعلوا من الشاعر المثقف الأول في القبيلة والقصّاص هو راوي القبيلة وضميرها، لقد أصبح الأدب مشحونا بالفلسفة التي ساهمت في جعله لا ينفصل عنها وعن علم الاجتماع، فالعلاقة إذن قوية بين الأدب والفلسفة مذ تغيّر الوضع السائد القديم من نظام القبيلة إلى نظام الدولة وأكبر مثال على ذلك اليونانيون الذين استطاعوا بفضل دعمهم للأدب بالفلسفة أن يتحرّروا وأن يلجوا السياسة من بابها الواسع[16].

فوظيفة الفلسفة التوجيه والتغيير الاجتماعي والعقلي، وكذلك وظيفة الأدب هي التغيير الاجتماعي والعقلي يقول "عبد الله شريط" في هذا الصّدد: «إنّنا لا نستطيع أن نجد فارقا كبيرا بين مهمة الفلسفة ومهمة الأدب في ميدان توضيح الرؤية للعلاقات الاجتماعية العقلية القائمة، وتحديد أنماط جديدة من هذه العلاقات مرتكزة على مفاهيم جديدة، ولا أستطيع أن أتصوّر مفاهيم جديدة للأدب وهي غير مدروسة من الفلسفة ولا محوّلة إلى فن عند الأدباء، ومن ثمّ لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن تنقطع العلاقة بين الفلسفة والأدب، وبين الفيلسوف أو المهتم بشؤون الفلسفة وبين الأدب أو المهتم بشؤون الأدب والفن»[17].

إن الأدب والفلسفة يشتركان في المهمّة نفسها وهي التغيير الاجتماعي والعقلي، حيث لا نجد فارقا كبيرا بين مهمتها حسب "عبد الله شريط"، فهو لا يتصوّر أي جديد في الأدب دون أن تكون الفلسفة حاضرة

فيه، وإذا كانت الفلسفة كعنصر في الأيديولوجيا وفي نظر عمار بلحسن هي: «القدر أو المصير لطبقة اجتماعية أساسية في نمط انتاج معين، وداخل تشكيلة محددة».[18] فإن من الضروري إظهار العلاقة بين الفلسفة والأدب كذلك فالأيديولوجيا والأدب هما نتاج الفلسفة، فالفلسفة هي الدعامة والمدد التي يستند إليها كل من الأدب والأيديولوجيا، إلاّ أنّ عمّار بلحسن يرى أن الفلسفة البعيدة عن التاريخ والصراعات الإنسانية والطّبقات هي فلسفة بلا حركة ودون فعالية، وعليه يؤكد على أهمّية المعتقدات والدين بالنسبة للأيديولوجيا.

2-3/ الأيديولوجيا والدين:

أورد عمار بلحسن الدّين والعقيدة كدرجة من درجات الأيديولوجيا، إلاّ أنّه يرى أن "غرامشي" لم ينتبه في البداية لهذا الأمر إلا بعد تطرّقه لأشكال دينيّة كاثوليكية[19] وبذلك تعتبر الكاثوليكيّة أيديولوجيا خاصة تديرها الكنيسة ورجال الدين، وعند رجوعنا إلى الماضي نجد أنّ الإنسان منذ العصور القديمة كان يفكّر في أمور دينه ومعتقداته، فلم يوجد هناك شعب دون عقيدة معينة ودون تفكير في الحياة الماورائية، لما كان الدين يمثّل كذلك تفكير مجموعة من الناس يشتركون في نفس الآراء والمعتقدات وحسب المجتمع الغربي المسيحي والكاثوليكي فالكنيسة هي التي تنظمها[20]«والممارسات الدينية مشتركة بما أنّ الكنيسة تنظّمها، ومن المهم معرفة كيف أقيمت بنى الإحاطة هذه، فكيف لا نتساءل عن دورها عندما نقارن التراتيبات الثّقيلة للكنيسة الكاثوليكية بالأشكال الأكثر مرونة للكنائس البروتستانتيّة أو الطوائف[21].

إذن فالكنيسة ورجال الدّين لعبوا الدّور الأهم في الإحاطة بهذه الممارسات والطّقوس وترتيبها وجعلها ضمن الأشكال المعتادة في الكنيسة، والأيديولوجيا حسب هذه الأفكار تمثّل الصّورة الثّانية للدين إلاّ أنّها لم تبلغ مبلغه، فهي تمثّل أفكار ومعتقدات لطائفة من طوائف المجتمع، أمّا الدّين فهو دين التّعالي والكلام الإلاهي المقدس،[22] وفي هذا الصّدد يقول "بول كلافال" :«الشأن الدّيني عوّض فيها جزئيا بالأيديولوجي، ويتضافر الاثنان على إعطاء معنى للحياة، وهما يفعلان ذلك بنفس الطّريقة، فالشأن الدّيني يتعلّق أولا بالحياة الفرديّة، فيما يرتبط الإيديولوجي بالحياة الجماعيّة فالأوّل يتحدّث عن الآخرة، والثاني يتحدث عن الدنيا لا غير، هذان النّمطان من الممارسات والمعتقدات متكاملان بوجه ما وهما أيضا متنافسان، إذ أن قصديتهما متشابهتان: توجيه أعمال الإنسان وإضفاء الشرعية على السلطات الساهرة على الإحاطة به، وجعل بعض الأفعال وبعض الأماكن مقدّسة»[23].

لقد مثّلت الأيديولوجيا وعوّضت جزءا من الدين بسبب تعلّقها بالحياة الجماعية، في حين يتعلّق الدّين بالحياة الفردية وعليه فوظيفتها متشابهة إن لم نقل واحدة، وتتمثّل في توجيه أعمال النّاس وأفعالهم إلا أنّ الدّين يتعلّق بالآخرة والأيديولوجيا تتعلق بالدنيا، وبما أن العلاقة بين الدّين والأيديولوجيا قويّة ووظيفتهما متشابهة فما علاقتها بالأدب كذلك؟

2-4/ الدّين والأدب

إنّ الطقوس الدّينية والشّعائر والعبادات التي يقام بها في كل أنحاء العالم هي عبارة عن أشكال دينيّة بواسطة نصوص يردّدها المتعبدون، خلال أداء طقوسهم الدّينية وليس هذا فقط، بل ومنذ القديم تعتبر الأسطورة رواية لأنها تنقل قصصا تتحدّث عن الآلهة والأرواح، وأبطال مثل الأساطير اليونانيّة المعروفة حيث دوّنت هذه الأساطير في أشكال قصائد مطوّلة تروي ملاحم وبطولات وحروب في عصر ما أقرب منها إلى الخيال يقول "بول كلافال": «تظهر الأسطورة كرواية يمكن للجميع فهمها بما أنها تتحدث عن أوساط، وكائنات وأشياء مألوفة... فهي تروي قصة ولادة وحياة ومغامرات وموت أنواع عديدة من الشخصيات: رجال وآلهة وأبطال ...الخ»[24]،ويقول كذلك في موضع آخر في نفس الصدد: «عندما نتجاوز غريب الروايات التي تكوّنها فإن الأساطير الكبرى تظهر هكذا كقطع مجموعة ذات معنى ديني وفلسفي في الآن نفسه بموضع الإنسان في الكون، ولهذه الأساطير قيمة توضيحية، لأنّها تضع في المشهد الفترات التي يتّخذ فيها الواقع الأشكال التي نعرفها عنه»[25].

والأسطورة لا تظهر في شكل قصائد كالإلياذة أو الأوديسة فقط، فهي تظهر كذلك كرواية تروي لنا قصصا تعبّر عن الواقع لأنّها ذات قيمة توضيحيّة فالجميع يمكن فهمها لأنّها تتحدّث عن الموت والحياة والآلهة والأرواح وأنصاف الآلهة وفي الوقت نفسه تنقل نصوصا دينيّة تتمثّل في شكل خطاب ديني، وهنا نلمس علاقة الدين بالأدب من خلال ظهور الأسطورة الرّواية كخطاب يروي لنا معتقدات كانت سائدة في مجتمعات منذ قديم الزّمان كالمجتمع اليوناني[26].

2-5/الأيديولوجيا والحس المشترك والحس السليم:

لتحديد رؤية العالم اختار غرامشي مفهوم الحس المشترك حيث يقول: «الحس المشترك هو فلسفة اللافلسفة أي تصور العالم تصوّرا غير نقدي»[27]، وعليه فالحس المشترك هو تصوّر العالم بطريقة عفويّة أي فلسفة الأشياء الخالية من الفلسفة ومع ذلك فإن الحس المشترك في نظره ينطوي على نواة من الحسّ السليم، حيث يرى بلحسن حسب منظور غرامشي أن هنالك أنواعا مختلفة من الأيديولوجيات تسعى إلى تحقيق التّماسك الاجتماعي وهناك من يحتجّ على تعرّضه للاستغلال وسط هذه الطبقات، وبذلك تكون الأيديولوجيات حلبة للصراع الاجتماعي، وهنا « يميّز غرامشي بشكل حاسم بين الفلسفة والحس السّليم بوصفهما مستويين لعمل الأيديولوجيا... ويحلّل غرامشي كيفية تشكّل الحس السليم فهو في الواقع مجموعة من المعتقدات المتناقضة للغاية... وهكذا فإنّ الحس السّليم هو مزيج من الأفكار التي تشكل حولها الوعي العملي لجماهير الشّعب»[28].

والحس السّليم هو مزيج من الأفكار، وهو مستوى من مستويات عمل الأيديولوجيا إذ تكون فيه الأفكار متداخلة، وهي التي تشكل الوعي العملي حولها للجماهير وعليه إذا لم تكن الأيديولوجيات والطبقات متداخلة فما دور الأيديولوجيا إذن قال "ماركس وأنجلز": «أفكار الطبقة الحاكمة في كل عصر هي الأفكار المسيطرة وعليه فكيف يمكن للناس العاديين إقناعهم بوجهة نظر معيّنة للأشياء؟ بمعنى آخر إنّ السؤال الجوهري حول الأيديولوجيا هو ليس ما إذا كانت حقيقة أم زيفا، ولكن كيف يتمّ الإيمان بها والتّعايش معها»[29].

من خلال ما تقدم تبيّن أن الأيديولوجيا لا يهمّ أن تكون حقيقة أو غير حقيقة، ولكن كيف يتم إقناع الناس العاديين بها، وهنا نلمس بعض التّناقض فإذا كانت الأيديولوجيا متداخلة مع الطبقات دون تمييز، فإنّها حينئذ مرتبطة بالطّبقة الحاكمة وبالأفراد المثقّفين في المجتمع فقط.

إن تحديد رؤية العالم وسط الطبقات المسودة والتّابعة تتحدّد بالحس المشترك حسب منظور بلحسن حيث يصنّفه بأنّه معقّد ومركّب في الوقت نفسه وسط الطّبقة أو الفئة الاجتماعية وعليه لا بدّ من التخلص من هذا التعقيد بطرح حجج عقلانية لإقناع الخصم الطبقي وإن غابت هذه الحجج يحين دور المثقفين والمتعلّمين للرد على الخصم الطبقي والتخلص من هذا التعقيد حيث يقول بلحسن: «وحتى لو لم يجد الحجج العقلانية الصارمة للإقناع والزواج بنظرة طبقته للواقع والعلاقات الاجتماعية فإنّه يعرف بالحس والحدس أن هناك مثقفين ومتعلمين قادرين على إقحام الخصم الطبقي وتقزيمه وتخريب محاججته الفكريّة»[30].

إنّ وظيفة الحس المشترك هي تحديد رؤية العالم بالنسبة للطبقات المسودة والتابعة ولكن للرد والإجابة على الخصم الطبقي لا بدّ من حضور المثقّف والمعلم للرد عليه وللتخلص من ظلم واضطهاد الطّبقة الحاكمة.

2-6/الأيديولوجيا والفلكلور:

يرى بلحسن أن الفلكلور هو الدرجة الصفر من الأيديولوجيا حيث صنّفه في آخر طابق من درجاتها ذلك أن الفلكلور غير قادر على الوصول إلى تصوّر عام وشمولي إذ هو مشلول ومبتور ومكون من مجموع الشّظايا والشذرات المبتورة.[31]

لقد عبر بلحسن عن الفلكلور بأنه مبتور ومشلول حيث عدّه آخر درجات الأيديولوجيا وذلك لأنه متنافر العناصر وفقيد الثّراء من حيث محتوياته ومضامينه، لأنه كما يعتبره «تلك البقايا الفكرية والذهنية التي تسقط من موائد الأيديولوجيات النّبيلة كالفلسفات والعلوم والأديان»[32]. وعليه فالفلكلور غير ثريّ وهو يفتقر للأيديولوجيا عكس الدرجات السّابقة كالفلسفة والدّين ولذلك اعتبره بلحسن في آخر درجات الأيديولوجيا.

عرف عن الفلكلور منذ القديم بأنّه الموروث الشّعبي والثقافي لأمة ما أو لشعب ما، وبكلّ أشكاله من أهازيج وأغاني وألغاز وأمثال وحكم وغيرها، ما تميّز به كلّ أمة عن أخرى، حيث لا يشترط في الفلكلور

أن يكون مكتوبا بل يرد مشافهة كذلك، فهو يؤثر في أشكال التّعبير الأدبي على حد قول "محمد مصطفى النور":« إنّ الفلكلور عبارة عن العناصر الثّقافية المؤثّرة في أشكال التعبير الأدبي والفنّي التي تصدر عن وجدان المجتمع في فترة زمنية محدّدة وبالتالي فهو لا يقتصر على الرّيف فحسب بل يرتبط بحياة الناس في إطار ثقافي يصوغ سلوكهم وعلاقاتهم»[33] ، فالفلكلور إذن من العناصر الثّقافية التي تؤثّر في الأدب والفن، لا يقتصر على مكان معين كالرّيف، بل هو من جهة يرتبط بسلوكات النّاس وعلاقاتهم ويصوغها ومن جهة أخرى فهو لا يختصّ بمجموعة من الناس فقط، بل يعمّ جميع أفراد المجتمع سواء في الرّيف أو المدينة، ولعلّ هذا ما جعل "عبد الله العروي" يصف الفلكلور ويتّهم المجتمع الذي يظهر فيه بالمتخلف، كما أنه يميّز بين الفلكلور والعمل التعبيري فيقول:«كلّ عمل فلكلوري، أكان موسيقيا أو تشكيليا أو أدبيا إنّما يرث عن المجتمع الذي يظهر فيه صفة التّخلف، بل يمكن القول إنه يستمد منها ما يلصق به من قيمة، أما العمل التعبيري فهو بالعكس يهدف إلى جبر النقص من خلال التعبير أنّه يشحذ الوعي الفردي والجماعي»[34].

هكذا يتضح أن بلحسن يجعل الفلكلور آخر درجة من درجات الأيديولوجيا، لأنّه يرث صفة التخلّف من المجتمع الذي يظهر فيه، وهذا حسب "عبد الله العروي" الذي يميّز بين الفلكلور والعمل التّعبيري، فالعمل التّعبيري هو ما يشحذ الوعي الفردي والجماعي بينما ذهب "مصطفى النور:" أن العلاقة قويّة بين الفلكلور وأشكال التعبير الأدبي، فالفلكلور من العناصر المؤثرة في أشكال التعبير الأدبي ويبيّن وظيفة الفلكلور التي تظهر في التّميز بين الشعوب وأفكارها ودياناتها، ويحقّ لكلّ شعب حسب موروثه الشعبي وحسب عاداته وتقاليده أن يقبل أو يرفض أفكار غيره من الشّعوب، وفي ذلك يقول :«ويخطئ من يظن أن الفنون الشعبية تهدف إلى التّسلية والتّروح عن النّفوس المكدودة، بل أنّ وظيفتها الأساسية المحافظة على ذات الفرد ودينه وثقافته وفكره، ليقف بقوّة أمام الثّقافات الوافدة»[35]

بين "مصطفى النّور" الوظيفة الأساسية للفلكلور ولخّصها في المحافظة على ذات الفرد ودينه وفكره، أليس الدّين والفكر والثّقافة كلّها من مظاهر الأيديولوجيا، وعلم الأفكار وتصوّر العالم، إنّ الفلكلور لا يقتصر على تسلية الناس والتّرفيه عنهم فقط، فهو فرع من فروع الأدب له خصوصيّاته كما أنّه يفرّق بين ما هو أصلي وما هو معاصر ويستمدّ من موروثه جزءا من التّاريخ للتّعريف بين الشعوب والأمم ومعرفة أفكارها وثقافاتها ومعتقداتها، فكلّ هذا يؤدّي بالمجتمع للمحافظة على خصوصياته التي تميّزه عن غيره.

عند عودتنا إلى بلحسن فإنّه يرى أنّ غرامشي لم يجعل أي دين مظهرا من مظاهر الأيديولوجيا ودرجة من درجاتها وإنّما يقصد شكلا خاصّا من الدّين وهو الديانة الكاثوليكية يقول بلحسن:«قام غرامشي بتحليل شكل ديني هو الكاثوليكية كأيديولوجيا خاصّة تملك نمطيّتها ومضامينها وهيكلها جهاز أيديولوجي هو الكنيسة التي يديرها مثقّفون هم الأكليروس أو رجال الدّين...»[36].

ثالثا-وظائف الأيديولوجيا وهيمنتها:

حصر عمار بلحسن دور الأيديولوجيا ووظائفها في أنّها: «تعطي التّجانس والوحدة للقوى المادية، وتكفل لها الحصول على الوعي الذّاتي وتعطي صورا عن موقعها داخل شبكة العلاقات الاجتماعية، بالإضافة إلى ذلك فهي تربط بين الطّبقات حيث يشبّهها بالإسمنت المسلح الذي يستعمله البناء للرّبط بين جدران وغرف العمارة، وتربط حسب غرامشي بين الدّين والثّقافة والإيمان والمعتقدات، وزد على ذلك لها فعالية بسيكولوجيّة، أي أنّها تؤثّر نفسيّا وذاتيّا على الناس، بل هي أداة تنظيمية إداريّة لهم، ولما يمارسونه من نشاطات متنوعة ومختلفة»[37].

هذا ما يقدّمه "عمار بلحسن" عن وظائف الأيديولوجيا من منظور غرامشي، بينما وظائف الأيديولوجيا عديدة فيها ما يتفق مع غرامشي إلى حد كبير، لأننا نجد من جمع للأيديولوجيا وظائف أخرى تتمثل في:

- تضمن الأيديولوجيا التّلاحم الدّاخلي وتحفظ الأمن القومي الخارجي وخاصة في المجال السياسي، وتخلق تعارضا بين الاصدقاء والأعداء بحيث يدافع كل فرد عن المجموعة التي ينتمي إليها والتّصدي لكلّ من يعارضها.
- تقدّم الأيديولوجيا تبريرا لكل من يسعى لتغيير معسكره أو مجموعة ويختار معسكرا آخرا حتى لا يغيّر اتّجاهه نحو حزبه.
- تخفي الأيديولوجيا العواطف ولاسيّما العواطف التي تخلق عداوات تشكّل خطرا على الآخرين، حيث تختار ستار "التأدّب" لأنّ سيطرة هذه العواطف العدوانيّة تقود إلى أعمال وتصرّفات خطيرة كالقتل والنّهب والاغتصاب وغيرها.
- إن الفاعل السّياسي يكون أمام خيارات عديدة ولذلك تسعى الأيديولوجيا إلى تعيين قيم تنظيم المجتمع وتكون كوسيلة لتقليص دوائر عدم اليقين وترجع الواقع إلى صياغات بسيطة مثل النّظام البرلماني الذي يحقّق الحرية.
- تجوّز الأيديولوجيا الإدراك، وتوضّح وظيفة التّعيين، لأن الفاعل السياسي بحاجة إلى إدراك الواقع الاجتماعي لأنّ طموحاته تتزايد في قطاعات أكثر شمولية داخل الواقع الاجتماعي.[38]

هذا في ما يخص وظائف الأيديولوجيا عند محمد سبيلا وعبد السلام عبد العالي، ونجد كذلك من يحدّد للأيديولوجيا وظائف أخرى مثل "بكري خليل"[39] الذي يلخّصها في الوظيفة الفلسفية وتتمثل في فلسفة حياة المجتمعات، وتكون الأيديولوجيا هي النّسيج الضّام الّذي يربط بين وقائع الحياة وكذا الوظيفة البنائيّة، والتي تتمثّل في خدمة بعض المصالح، وتوجيه أنصار الأيديولوجيا إلى تحديد موقعهم في العالم، والتكيف معهم،

ثم نجد الوظيفة النفسيّة التي تعطي صورة أخرى للواقع، وتكون هذه الصورة مثالية تجعل النّاس يدركون قيمتهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم، والوظيفة الاستشرافية والتي تتمثل في تكوين عقل يتوجه إلى المستقبل حيث تجعل له أهدافا وتوقّعات لما هو آت.

هكذا تعتبر وظائف الأيديولوجيا متعدّدة بتعدّد مجالاتها وتعدّد علاقاتها وارتباطاتها بالعلوم الأخرى مثل الفلسفة، وعلم الاجتماع والعلوم السياسية وغيرها، أمّا بالنّسبة لعلاقتها بالأدب فقد سار عمار بلحسن في مبحثه هذا بالتدرّج فأوّلا بدأ باختيار مفهوم الأيديولوجيا عند غرامشي، ثم بيّن تجلّيات الأيديولوجيا ودرجاتها ثم وظائفها وفعاليتها وما جعل بلحسن يقتصر على الوظائف السّالفة الذّكر للأيديولوجيا مثل ربطها بين الطبقات داخل المجتمع هو التأكيد على شموليّة الأيديولوجيا و تأدية دورها التلحيمي والتّسليحي الذي يجعل الأيديولوجيا كالإسمنت المسلح داخل الطّبقات الاجتماعية وحتّى يميّز بلحسن حسب ما أورده غرامشي بين الأيديولوجيا العضويّة والأيديولوجيا المبتذلة.[40]

رابعا- الأيديولوجيا في الأدب:

إنّ الأدب والأيديولوجيا أطروحتان متناقضتان في العلاقة التي تربطهما، من منظور عمار بلحسن حيث عرض فكرتين قدّمهما الفكر المثالي انطلاقا من نظرتة للأدب تتمثّل الأولى في كون الأدب خلق وإبداع، والنص الأدبي خلق من طرف ذات واعية هي الكاتب، وهو كتابة خارج التاريخ والعلاقات الاجتماعية، وتتمثل الفكرة الثّانية في أنّ الأدب هو ممارسة لا علاقة لها بالبنية الاجتماعية فهو إبداع فردي، ولا يحمل أيّ فكرة من أفكار وأيديولوجيات الفئات الاجتماعية[41] يقدّم بلحسن الفكرتين السابقتين ليبرّر موقفه من خلال هذا التّناقض الذي نلمسه في علاقة الأدب بالأيديولوجيا، كما هو في الفكر المثالي.

إذا كان الأدب إبداعا فرديا ومع ذلك لا يمكن عزله عن الظروف الاجتماعيّة التي كانت سببا في إنتاجه، وليست الظروف الاجتماعية لوحدها وإنما تكمن علاقة النص الأدبي بالمجتمع من خلال اللّغة، فاللّغة هي الرّابط والجذع المشترك بينهما، ولعلّ "سعيد يقطين" يؤكّد هذه الفكرة مستشهدا "بتينيانوف" الّذي يرى أن: «العلاقة بين الأدب (النص) والمجتمع لا يمكن العثور عليها إلا من خلال اللغة، إنّ الأدب وظيفة لفظية في علاقتها بالحياة الاجتماعية، وإنّ المتوالية الأدبيّة أو النظام الأدبي هو الذي نُرجع إليه مقولة "توجيه" الوظيفة، ولا يمكننا أن نُرجع هذا إلى عمل أدبي مفرد...»[42]

حاول عمار بلحسن بطرح فكرة أن العمل الأدبي عمل مفرد أن يثبت ما ذهب إليه في كون العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا معقّدة ومتناقضة، إلا أنه من جهة أخرى يتفق مع يقطين في كون الأدب والأيديولوجيا تتواجد علاقتهما مع اللغة حيث يقول بلحسن: «الأدب هو إنتاج أيديولوجي، يتواجد في علاقة مع اللغة ومختلف أشكال استعمالها، فهو إنتاج لا يوجد إلا بالعلاقة مع الأيديولوجيا ومع التاريخ، تاريخ التشكيلات

الاجتماعية وتاريخ الإنتاج الأدبي...»[43] وعليه فالأدب إنتاج أيديولوجي ويتشكّل مع تشكيلات تاريخية واجتماعية فإذا كان الأدب نتاجا أيديولوجيّا، فلم يجرده بلحسن إذن من علاقته بالبنية الاجتماعية بطرحه لفكرتي الفكر المثالي، وهنا يظهر التعقيد والغموض الذي تحدّث عنه بلحسن ولكنه وليتجاوز ذلك طرح فكرتي النّزعة الاقتصاديّة والنّزعة الإرادويّة للأدب ففي النزعة الأولى ذهب إلى أن الأدب شكل أيديولوجي لأن الموضوع الأدبي ما هو إلا انعكاس أيديولوجي للموقع الطبقي للكاتب، وفي الثّانية أنّ الأدب يمثّل كلمة تعبيرية تبدأ من الحقيقة وتنتهي إليها والكاتب هو سيد النّص فمنطلقه البدء من الحقيقة ثم إعادة إنتاجها.[44]

إن الأدب في نظر بلحسن من خلال طرحه للنزعة الاقتصادية يظهر كممارسة بحتة لأن هذه النزعة تحلّ محل الأدبي والأيديولوجي معا وعليه فلقد زاوج بين الأدب كنتاج مادّي، وبين الواقع الاجتماعي، وبالتّالي فإنّ: «التّعامل مع النص الأدبي كعمل إبداعي ينبغي له التعمّق والتفحّص القائم على الملاحظة والمقارنة بين الواقع الاقتصادي والاجتماعي للمرحلة الّتي أُنتج فيها النص...»[45] وهذا ما يجعل بلحسن يجمع بين الأدب كنتاج أيديولوجي وواقع مادّي في الوقت ذاته، حتى يتجاوز هذا التناقض الّذي طرحه في المنهج المثالي سابقا، وعليه فإنه يرى أنّ: «علاقة الأدب الموضوعية بالأيديولوجيا تظهر في كونه أُنتج تحت تأثيرها، وفي كونه هو يَنتج آثارا أيديولوجية...»[46].

يجعل بلحسن علاقة الأدب بالأيديولوجيا تكمن في انتاج الأدب أيديولوجيا عامّة دون أن تقتصر على ذلك فقط، ولا على اعتمادها النسق اللّغوي فحسب، وإنّما يرتبط إنتاجها من خلال الرّؤية الأيديولوجية للكاتب، فالأدب والتاريخ والعلاقة الاجتماعية يشكّلون وحدة متناقضة ومعقّدة وذلك أنّ الأدب أُنتج تحت تأثير الأيديولوجيا وهذا ما يوافق ما ذهب إليه إبراهيم علي حين يرى أنّ: «النّص الأدبي ليس ممارسة لغويّة خارج التاريخ، كما أنه ليس وثيقة استرشادية، النص هو ممارسة إنتاجية إبداعية للغة تمت وفق قوانين خاصّة أدبيّا، واجتماعيّا وتاريخيّا»[47]

يميّز بلحسن بين الأيديولوجيا العامّة الّتي ينتجها الأدب كآثار، إذ تبدو مضمرة داخل النص، وهي بدورها تكشفه، وهي أيديولوجيا أدبية، أي أيديولوجيا نصوص، وبين الأيديولوجيات الأخرى المتواجدة في المجتمع، ولكنها تشكل انعكاسا في ذهن الإنسان ومن ثمّ في ذهن الأديب الكاتب، وذلك أنّ الأيديولوجيا المضمرة في النّصوص الأدبيّة تساهم في تشكيل العمل الأدبي عن طريق سيرورة التّحويل، والتّشكيل والتّنوير للمواد الأولية الأدبية[48] وهذا ما يراه بلحسن وهذا ما رآه باختين كذلك حين فسّر العلامة اللغوية التي تساهم في تشكيل الأيديولوجيا وتحضر في النص الأدبي إذ يقول: «لا نأخذ اللغة بوصفها نظام مقولات صرفيّة، نحوية مجرّدة، بل اللّغة المتمثّلة أيديولوجيّا، اللغة بوصفها نظرة إلى العالم، بل حتى بوصفها رأيا مشخّصا تتضمّن أقصى حد من التفاهم في كل دوائر الحياة الأيديولوجيّة»[49]

وما يقصده بلحسن بحضور الأيديولوجيا داخل النص الأدبي بشكل مضمر وعلى شكل آثار وتشكّلها عن طريق المادّة الأوليّة فسّره باختين بالعلامة اللغوية ودورها في بناء النص الأدبي، حيث لم تعد اللغة مجرّد مقولات نحويّة وصرفيّة فقط بل اللغة مليئة بالعلامات المحمّلة بالأيديولوجيا[50]، لأن الكاتب لحظة كتابته أو إنتاجه للنص الأدبي يقوم بتحويل اللغة من مادّة دالّة إلى وضع تنظّم فيه اللّغة مرة أخرى، وهذا ما يؤكّده بقوله: «الكتابة هي عملية تحويل اللّغة وتشكيلها، أي نقلها من وضع الدالّة إلى وضع تنظّم فيه من جديد داخل النّص الأدبي[51] وهكذا تكون وظيفة الكتابة الأدبية هي: «في أن تنجز (شعرية Poetique) لغتها الخاصة، وأن تخرج من الدّلالة الأحاديّة لتعانق الدّلالات حيث تتبلور في سياق نقدي ينفتح على آفاق جديدة بما يعطيه لها من وظائف أو واجبات جديدة، نقد المدوّنات الأيديولوجية السّائدة، نقد الشفرات السيميائية، نقد المعيش اليومي وعلاقاته وقيمه، هكذا أصبحت فاعلية الكتابة كفعل أساسي لفعل القراءة، عملية معرفيّة شاملة تجمع بين التحليل اللّغوي والتّساؤل التّاريخي...»[52]

هكذا غدت الكتابة كفعل تجعل اللغة تنفتح على دلالات متعدّدة وجديدة تحتوي على شفرات سيميائية ومعيش يومي ومدونات أيديولوجية، فالكتابة هي الفعل الأساسي الذي يجمع بين اللغة والتاريخ، وهي عملية شاملة وهذا ما يؤكده كذلك بلحسن حين يرى أن: «الكاتب يقوم بتحويل اللغة ويدخل في سياق" عملية إعادة إنتاج للمعنى واللغة. وبهذا المنظور يعتبر الأدب إعادة إنتاج للأيديولوجيا وليس نتاجها...».[53]

وهكذا يعتبر الأدب إعادة إنتاج للأيديولوجيا حسب عمار بلحسن وليس نتاجا لها وإنّما يعتبر أحد خطاباتها، فهي وجدت قبله كأفكار استعمل الأديب والكاتب اللغة وحوّلها إلى إنتاج أدبي وهذا ما يؤكده بلحسن بقوله: «ويبدو الأديب كعامل في ورشة لإنتاج النصوص تراكم تجربة الأجيال السّابقة في فكره وبين يديه وينطلق منها نحو آفاق جديدة...»[54].

لكن هناك بالمقابل من يختلف مع طروحات بلحسن لأنّ الأيديولوجيا ليست العنصر الوحيد المكوّن للنص، وإنّما البعد الأيديولوجي في النص الأدبي يتحدّد من خلال علاقته بالعناصر الأخرى، وهذا ما يوضحه "شكري غالي" في هذا الصدد بقوله: «إن البعد الأيديولوجي في النص هو أحد العناصر المكونة لهويّة النص غير أنّه ينبغي أن يتصوّر هذا العنصر وكأنّه العنصر الوحيد في النص، وإنما يتعيّن تحديد هذا البعد من خلال النص وضمن بقيّة العناصر الأخرى المكوّنة له...».[55]

إن نظرة عمار بلحسن للأديب وإنتاجه للنّص الأدبي من خلال فكره وانطلاقه نحو آفاق جديدة، وكذا اعتبار الأيديولوجيا موجودة قبل النص الأدبي لذلك فهي التي تنتجه وإنّما هو يتضمنها فقط، فيوجد من يخالفه في هذا الرأي حيث يعتبر أصحاب نظريّة النص حسب ما ذهب إليه "الياس خوري" أنّ: «النص الأدبي ليس تصورا وإنّما ممارسة»[56] وهكذا فإنّ النص هو ممارسة معينة وخاصّة بمجال معين يستعملها الكاتب

لتقديم إنتاجه للقارئ فتصبح ممارسته هي الأخرى إنتاجا وهذا ما يؤكّده "سعيد يقطين "حين يرى أن: «عمليّتي الكتابة والقراءة ممارسة تقدّم كلّ منهما حين تمارس في علاقاتها بالأخرى إنتاجا وفي نطاق التبادل العلائقي الوظيفي بين الإنتاجين تغدو الممارسة عليهما إنتاجا كذلك... »[57].

من خلال ما تقدم من طرح عمار بلحسن وحتى يبرر موقفه نجده يورد ثلاث أطروحات فيما يخصّ كشف وفهم علاقة الأدب بالأيديولوجيا، إذ تكمن الأطروحة الأولى في كون النص الأدبي هو الذي يعيد تنظيم وكتابة الأيديولوجيا، وبذلك تصبح في بنية جديدة، ولكنها تختلف من نص لآخر، أمّا فيما يخصّ الأطروحة الثانية قيام النص بتحويل الأيديولوجيا وإعادة تكوينها بصفتها أيديولوجيا عامّة تحضر في النص بشكل مضمر، والأطروحة الثالثة تتعلّق بكون العمل الأدبي يتضمّن عناصر معرّفة للواقع حيث تمثّل جانبا فنيّا جماليا لظواهره.

ولا يقف بلحسن عند هذا الطرح فحسب وإنّما يرى أنّ دراسة وتحليل الأيديولوجيا الأدبيّة ينتجها شكل خاص من الأدب هو الرّواية أي أن الجنس الأدبي الذي يبيّن هذه العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا هو الرواية، فبهذه الطّريقة يتّضح جلياً أنّ بلحسن تحدث عن هذه العلاقة بصفة عامة ثم ذهب إلى التخصيص فهو يسير في بحثه بالتدرّج فالحديث كان على الأدب بصفة عامة ثم الرواية بصفة خاصّة.

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة في مدونة عمار بلحسن التي طرقت علاقة الأدب بالأيديولوجيا من خلال الاطلاع على منجزه الفكري "الأدب والأيديولوجيا" نستخلص ما يلي:

- أنّ الأيديولوجيا التي تشكل علاقة مع الأدب وتكون جزءا من نصوصه هي الأيديولوجيا التي نظَر إليها المفكر الإيطالي "أنطونيو غرامشي" لأنّها تشمل كل النّظم الاجتماعية، فهي متداخلة مع الطبقات ومتعدّدة وبعيدة عن الوعي الزّائف وتعبير عن الحقيقة وتتجلّى في الفنّ والأدب شكل من أشكال الفن.
- للأيديولوجيا أربع درجات تتجلّى في (الفلسفة، الدّين، الفلكلور، الحس المشترك)، وهذه الدّرجات لها علاقة بالأدب كذلك لأنّه يشمل هذه المراتب الأربعة، خاصّة الفلسفة لأنّ الأدب تمّت فلسفته ولم يبق مجرّد نصوص مليئة بالمشاعر والعواطف، وإنّما غدا تعبيرا عن الواقع الاجتماعي والصراعات الموجودة فيه.
- للأيديولوجيا وظائف كثيرة ومن بين الوظائف الّتي ركّز عليها بلحسن في منهجه هذا وظيفة الربط، فهي تربط بين الطبقات، وكذا تربط بين الدّين والثّقافة والإيمان والمعتقدات، وفي وظيفتها هاته تحطيم للحواجز والجدران الفاصلة بين الطبقات.

- أنّ علاقة الأدب بالأيديولوجيا معقّدة ومتناقضة ومن أجل تجاوز ذلك عرض بلحسن فكرتين للفكر المثالي ليبرّر هذا التّناقض.
- أنّ الأدب إنتاج أيديولوجي وواقع مادّي في الوقت ذاته، أُنتج تحت تأثيرها.
- أن علاقة الأدب بالأيديولوجيا تكمن في فعل الكتابة، لأن الكاتب يحوّل اللغة ويشكلها ويعيد تنظيمها داخل النص الأدبي.
- أنّ اللّغة ليست مجرّد نظام مقولات صرفيّة، ونحويّة وإنّما اللغة ممتلئة بالأيديولوجيا وهذه اللغة بمثابة المادة الأولية للنص الأدبي.
- أنّ الأيديولوجيا تكون في النصّ الأدبي كآثار يقوم هو دوره بإعادة انتاجها.
- الأيديولوجيا تحضر في النص الأدبي على شكل دلالات مضمرة ومتعدّدة.
- الأيديولوجيا موجودة قبل النص ولذلك هي من ينتج النص الأدبي.
- أنّ اللغة ليست العنصر الوحيد والمشكّل للنص الأدبي وإنّما البعد الأيديولوجي في النص الأدبي يتحدّد بعناصر أخرى من بينها الظروف الاجتماعية المحيطة بكاتب هذا النص.

هوامش:

[1]- عمار بلحسن، 1984، الأدب والأيديولوجيا، شارع العربي بن مهيدي-الجزائر، المكتبة الشعبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 16.

[2]- ميشال سيمون،1978، أفهم الأيديولوجيا، باريس، دار الوقائع الاجتماعية،ص 100

[3]- أحمد خلفون و آخرون، إشكالية العلوم الإجتماعية في الوطن العربي،دار التنوير ، ص 135.

[4]- آنيا لومبا،2007 ، الكولونيالية ومابعدها ترجمة: باسل المسالمة، ط1، بيروت- الدار العربية للعلوم ، ص 51.

[5]- عبد الله العروي: 2012، مفهوم الأيديولوجيا، ط8، المغرب- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص40،41.

[6]- عمار بلحسن، الأدب والأيديولوجيا، ص 19.

[7]- آنيا لومبيا، المرجع السابق، ص 51.

[8]- المرجع نفسه، ص 51.

[9]- ياكوف ألسبرغ، سنة (1973) ، المنحى السوسيولوجي في النقد الأدبي ترجمة: نوفل نيوف ، مجلة الآداب الأجنبية، دمشق - اتحاد الكتاب العرب، عدد 1 ، ص 73.

[10]- عمار بلحسن، المصدر السابق ص 20.

[11]- المصدر نفسه، ص 21.

[12]- الرابط شايع بن هذال الوقيان متى تصبح الأيديولوجيا فلسفة بتاريخ السبت 23/أفريل/2011: article.https //www.okaz.com.sa

[13]- المرجع نفسه.

[14]- المرجع نفسه.

[15]- عبد الله شريط،1981 المشكلة الأيديولوجية وقضايا التنمية، الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص160.

[16]- المرجع نفسه، ص 164.

[17]- المرجع السابق، ص 170.

[18]- عمار بلحسن، المصدر السابق ص 23.

[19]- المصدر نفسه، ص 25.

[20]- بول كلافال، 2010، الدين والأيديولوجيا آفاق جغرافية، ترجمة فرج عوني، ط1، تونس ، الدار المتوسطية للنشر، ص 108.

[21]- المرجع نفسه، ص 108.

[22]- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر،2000 في فلسفة الحضارة، الإسكندرية -دار المعرفة الجامعية، ص 206.

[23]- بول كلافال، المرجع السابق ص 16.

[24]- بول كلافال، مرجع سبق ذكره ص 127.

[25]- المرجع نفسه، ص129.

[26]- المرجع نفسه، ص 129.

[27]- جان تكسيه،1972، غرامشي دراسة و مختارات، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق- منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي،ص 146.

[28]- آنيا لومبا، الكولونيالية وما بعدها مرجع سابق، ص 52.

[29]- المرجع نفسه، ص 52.

[30]- عمار بلحسن، الأدب والأيديولوجيا، مصدر سابق، ص 29/28.

[31]- المصدر نفسه، ص 28.

[32]- المصدر نفسه، ص 30.

[33]- محمد مصطفى النور،2004، الفلكلور والحياة الشعبية في منطقة الحامداب وحدة تنفيذ سد مروي، ط1، دمشق، مؤسسة الصالحاني، ص 09.

[34]- عبد الله العروي، مرجع سبق ذكره، ص 208.

[35]- محمد مصطفى النور، مرجع سبق ذكره ص 10.

[36]- عمار بلحسن، الأدب والأيديولوجيا، مصدر سابق، ص 26.

[37]- ينظر: المصدر نفسه، ص 35، 36.

[38]- محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي،2006، الأيديولوجيا- ط2، المغرب- دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ص 52،53.

[39]- بكري خليل،2002 الأيديولوجيا والمعرفة، ط1، الأردن -دار الشروق ، ص 181.

[40]- ينظر عمار بلحسن، الأدب والأيديولوجيا مصدر سابق، ص 35.

[41]- المصدر نفسه، ص 91.

[42]- سعيد يقطين، 2001، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، ط2، المغرب ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص35.

[43]- عمار بلحسن، المصدر السابق، ص 92.

[44]- المصدر نفسه، ص ص 92، 93.

[45]- عمر وعيلان، 2001، الأيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، دراسة سوسيو بنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، قسنطينة -منشورات جامعة منتوري، ص31.

[46]- عمار بلحسن، مصدر سبق ذكره ص 94.

[47]- Foucault,michel (1968):reponse,au cerel,depstemologie,cahier pour lanalise.

[48]- عمار بلحسن، الأدب والأيديولوجيا مصدر سابق، ص 94،95.

[49]- باختين ميخائيل،1988 الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، ط1، دمشق -سورية ، منشورات وزارة الثقافة ،ص 21.

[50]- المرجع نفسه، ص 21.

[51]- عمار بلحسن، المصدر السابق، ص 96.

[52]- أركون محمد، 1982، الفكر العربي، ترجمة عادل العوا، ط1، بيروت- منشورات عويدات، باريس، ص21.

[53]- عمار بلحسن، مصدر سبق ذكره، ص 96.

[54]- المصدر نفسه ص 98.

[55]- شكري غالي،1978 شعرنا الحديث إلى أين، ط2، مصر- دار الآفاق الجديدة، ،ص 162.

[56]- يقطين سعيد،1988 ، القراءة والتجربة ط1، المغرب ، الدار البيضاء، دار الثقافة،ص 13.

[57]- خوري الياس، 1988، الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، ط1، الدوحة-قطر، مؤسسة الأبحاث العربية، ص 19، 20.

قائمة المراجع:

1- أركون محمد، 1982، الفكر العربي، ترجمة عادل العوا، ط1، بيروت- منشورات عويدات، باريس.
2- أحمد خلفون و آخرون، إشكالية العلوم الإجتماعية في الوطن العربي، دار التنوير .
3- أحمد محمود صبحي و صفاء عبد السلام جعفر،2000 في فلسفة الحضارة، الإسكندرية -دار المعرفة الجامعية.
4- آنيا لومبا،2007، الكولونيالية ومابعدها ترجمة: باسل المسالمة، ط1، بيروت- الدار العربية للعلوم.

5- باختين ميخائيل،1988 الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، ط1، دمشق -سورية، منشورات وزارة الثقافة.
6- بكري خليل،2002 الأيديولوجيا والمعرفة، ط1، الأردن -دار الشروق.
7- بول كلافال، 2010، الدين والأيديولوجيا آفاق جغرافية، ،ترجمة فرج عوني، ط1، تونس ، الدار المتوسطية للنشر.
8- جان تكسيه،1972، غرامشي دراسة و مختارات، ترجمة ميخائيل عيد، دمشق- منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي.
9- خوري الياس، 1988، الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، ط1، الدوحة-قطر، مؤسسة الأبحاث العربية.
10- سعيد يقطين، 2001، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، ط2، المغرب ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
11- شكري غالي،1978 شعرنا الحديث إلى أين، ط2، مصر- دار الآفاق الجديدة.
12- عبد الله العروي: 2012، مفهوم الأيديولوجيا، ط8، المغرب- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
13- عبد الله شريط،1981 المشكلة الأيديولوجية وقضايا التنمية، الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
14- عمار بلحسن، 1984، الأدب والأيديولوجيا، شارع العربي بن مهيدي-الجزائر، المكتبة الشعبية، المؤسسة الوطنية للكتاب.
15- عمر وعيلان، 2001، الأيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، دراسة سوسيو بنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، قسنطينة -منشورات جامعة منتوري.
16- محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي،2006، الأيديولوجيا- ط2، المغرب- دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
17- محمد مصطفى النور،2004، الفلكلور والحياة الشعبية في منطقة الحامداب وحدة تنفيذ سد مروي، ط1، دمشق ، مؤسسة الصالحاني.
18- ميشال سيمون، 1978 ، أفهم الأيديولوجيا، باريس، دار الوقائع الاجتماعية.
19- ياكوف ألسبرغ، سنة (1973) ، المنحى السوسيولوجي في النقد الأدبي ترجمة: نوفل نيوف ، مجلة الآداب الأجنبية، دمشق - اتحاد الكتاب العرب، عدد 1.
20- يقطين سعيد،1988 ، القراءة والتجربة ط1، المغرب ، الدار البيضاء، دار الثقافة.

المراجع بالأجنبية:

1- Foucault,michel (1968):reponse,au cerel,depstemologie,cahier pour lanalise

المواقع:

1- الرابط شايع بن هذال الوقيان متى تصبح الأيديولوجيا فلسفة بتاريخ السبت 23/أفريل/2011: article.https //www.okaz.com.sa